كروية الأرض.. والعلم الحديث!

انتهينا فى الفصل السابق إلى رد فرية من افتراءات خصوم الإسلام ، وهي قولهم : إن القرآن فى كثير من أساليبه يعمد إلى أشياء لو وقف العقل النظرى عندها لردها ، فمثلا حين يقول القرآن الكريم : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ﴾ [آل عمران : ١٣٥] وفى آية أخرى : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ﴾ [النساء : ١١٠] ، فجمع بين السوء والظلم ، وجمع بين الفاحشة والظلم ، وكأن الذى يعمل سيئة لا يظلم نفسه أو كأن الذى يظلم نفسه لا يعمل سيئة ، فالمعنى واحد ، فلا ضرورة لوجود العاطف هنا بـ : ﴿ أَوْ ﴾ .

ونسوا أن الذى يصنع الفاحشة إنما يحقق متعة عاجلة لنفسه ، وحين يحقق المتعة العاجلة لنفسه يكون فى الوقت ذاته غافلاً عن جزاء هذه المتعة ، وماذا يمكن أن يكون من العذاب عليها .

لو أنه قارن المتعة العاجلة التى تخول له أن يفعل الفاحشة ليستمتع بها وقارنها بالجزاء الذى أُعد له ، لانصرفت نفسه عن هذه الفاحشة .

ولكن كثيرا من الناس يظلمون أنفسهم بمعنى أنهم لا يحققون بالذنب متعة لذواتهم فيكونون قد أعطوا أنفسهم بعض المتعة ولو كانت عاجلة .

فهم يفعلون الشيء ليحققوا متعة لسواهم ، فلم يستفيدوا لا بالمتعة العاجلة التى تحققها الفاحشة ، وسيصلون جزاءهم فى الآخرة على هذه ، بدون أن تتمتع النفس بشيء ما ، وذلك ظُلمٌ للنفس .

لأن النفس حين تفعل الفاحشة تكون قد أخذت شيئًا من المتعة ولو كانت متعة عاجلة .

أما الذى يصنع الظلم ليحقق لسواء متعة فيكون قد ظلم نفسه ، لأنه لم يعطها لا متعة عاجلة ، وسيصلى بالعذاب الآجل .

ولذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم شرحًا لهذه القضية وتأكيدًا لأسلوب القرآن : « شركم من باع دينه بدنياه ، وشرٌ منه من باع دينه بدنيا غيره »[1] .

الرجل الذى يشهد الزور والذى يظلم أحدًا أولاً فى أخذ ماله يستمتع بالمال ، فيكون قد صنع ذنبا وأخذ بالمال متعة حققها لنفسه ؟

لكن الذى يشهد زورا لواحد ليأخذ هذا الواحد غير حقه ، فقد حقق للغير متعة ، وبقى هو بلا متعة ، فيكون قد ظلم نفسه .

وأيضا جاءوا بفرية أخرى ، وهذه الفرية هى : أن أقوال علماء الإسلام متضاربة فى قضايا القرآن ، فبينما نجد قومًا يهللون لكل مبتكر جديد من ابتكارات العلم فى العصور الحديثة ، ثم يذيعون ويشيعون بكلامهم نفسه أن القرآن قد سبق إلى هذه القضية منذ أربعة عشر قرنًا .

وأناس يؤلفون كتبا فى هذه المسألة . . وهذا كلام صحيح . بينما يوجد علماء آخرون ينكرون قضايا جاء بها العلم الحديث مجيئًا يقينيًا ومع ذلك يقفون فيها لأن القرآن يعارضها . ويستدلون على ذلك بكتيبات طبعت

---

(١) روى الطبراني فى الكبير [٨/ ١٢٣/ ٧٥٥٩] ، وابن ماجه [٣٩٦٦] وقال الألبانى : ضعيف ، عن أبى أمامة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن من شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة عبد أذهب آخرته بدنيا غيره .
قال المناوي فى فتح القدير : « إن من شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة عبداً » ، أى : إنساناً مكلفاً حرا كان أو عبدا « أذهب آخرته بدنيا غيره » أى : باع دينه بدنيا غيره ومن ثم سماه الفقهاء أخس الأخساء ، وقالوا : لو أوصى للأخس صرف له .
وفي ذكر عبد دون رجل أو امرأة توبيخ شديد حيث ترك رضى مولاه لرضى من هو مثله .
ولا تدافع بين هذا وبين خبر : إن شر الناس من يتقى فحشه . لأن من أذهب آخرته بدنيا غيره يكون ذا فحش أشد فمن أقدم على أى شيء شاء فيتركه الناس اتقاء فحشه .

صحيحة لبعض العلماء الذين ينكرون كثيرا من القضايا العلمية الكونية لأن القرآن عندهم يتعارض معها .

ويقصدون بعرض هذه القضية ، القضية التى تتمثل لا فيما على الأرض ولكن فى جرم الأرض ذاتها .

وهذا كتاب أُلف صحيحا فى هذا القصد مما يدل على أنهم قد استوعبوا ما كتب عن الإسلام حتى من رجال الإسلام أنفسهم ، فجاءوا بمؤلفات قالوا : هذه تتعارض مع هذه ، جاءوا بالمؤلفات التى تثبت أن القرآن يتمشى مع العلم الحديث التجريبى تمشيا يؤكد الحقيقة القرآنية قبل أن تصبح حقيقة كونية .

وجاءوا بالمؤلف الآخر الذى يناقض ذلك وهو : أن بعض الحقائق الكونية هذه كذب لأنها تتعارض مع القرآن وقالوا : نريد أن نعرض قضية واحدة هى قضية لا ما على الأرض ولكن على الأرض ذاتها . الأرض ذاتها ثبت علميًا وتجريبًا ومشهديًا وواقعيًا أنها كرة . كانت أول كرة بالاستدلال . كانت أول كرة بأنهم يرون ظلامها - مثلاً - على الشمس وقت الخسوف أو الكسوف مستديرًا ، وكانوا يرونها مستديرة من نظرية . . . ظهور أعالى الأشياء قبل أسافلها . . كانت كلها براهين استدلالية .

ولكن بعد أن عَبر الإنسان أجواء الفضاء وعلا عن مستوى الأرض ، ثم أخذ لها صورًا ، وجاءت الصور بالأرض مُكورة ، فلم يعد هناك دليل يُغنينا بعد هذا المشهد الذى وجد ، فاستدلوا بهذا على أن هناك كتابا أُلف وقالوا : فى بلد يحكمه منطق الإسلام إن ذلك المؤلف قال : هذه خرافة ولا يمكن أن تكون وهي مسطوحة ، وفعلا جاءوا بالأدلة التى ذكرها العلماء فى أن الأرض ليست كروية ولا مسطوحة .

نقول لهم : إن فهم واحد من علماء الإسلام لقضية قرآنية لا يعتبر حجة على القضية القرآنية لأن كلمة الحق شيء ثابت ، والشيء الثابت لا يتغير إلى مقابل ولا إلى نقيض .

وما دام الشيء ثابتًا فهو الآن مثله فيما مضى مثله فيما يكون. . يعنى فيما يستقبل ، فإذا نظرنا إلى الكون وجدنا فيه حقائق كونية ثابتة وهي مخلوقة للّه ، والقرآن كلام اللّه .

وما دام الكون من خلق اللّه ، والقرآن كلام اللّه ، فوجب أن لا تتعارض حقيقة كونية مع حقيقة قرآنية ، فإن تعارضت الحقيقة الكونية مع الحقيقة القرآنية ، يكون واحدًا منهما ليس من عند ربنا .

لكن إذا التقت الحقيقة الكونية بالحقيقة القرآنية ، يكون هذا من كلام اللّه وهذا من خلق اللّه ، ولو أن الذى تكلم واحد ، والذى خلق الحقائق الكونية واحد آخر ، لكان من الممكن أن يوجد خلاف .

إنما ما دمنا نقول اللّه هو خالق الكون ، واللّه هو قائل القرآن ، فقد وجب أن تكون الحقيقة الكونية هى بذاتها الحقيقة القرآنية .

فإذا وجد ما ظاهره أن تتعرض حقيقة قرآنية إلى أن تهدم حقيقة كونية ، أو حقيقة كونية تهدم حقيقة قرآنية ، نقول : أنتم المخطئون فى فهم الحقيقة ، ولابد أن تعيدوا النظر من جديد لتفهموا الحقيقة القرآنية والحقيقة الكونية .

فإذا وجدت حقيقة قرآنية هى الحقيقة القرآنية ووجدت حقيقة كونية هى الحقيقة الكونية ، فلابد أن تتفقا ، فإذا اختلفتا ، فأنتم فهمتم حقيقة قرآنية وهي ليست حقيقة قرآنية ، أو فهمتم حقيقة كونية وهي ليست حقيقة كونية .

ضربوا المثل بكروية الأرض ، فاستعرضنا ما قيل فى هذا ، فوجدنا بعض العلماء ينكرون هذا ، يقولون : الأرض مسطوحة . وبعد ذلك جعلوها حقيقة قرآنية .

نقول له : لا ، هؤلاء أخطأوا فى أنهم فهموا أنها حقيقة قرآنية . لماذا ؟

لأن دليلهم لا يُعطى هذه الحقيقة . فقد استدلوا فى كتاب لفظي على

أن الأرض مبسوطة ، ويناقض هذا ما ذهب إليه العلم الحديث من أنها مكورة لأن الله تعالى يقول : ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا ﴾ [الحجر : ١٩] أخذ ﴿ مَدَدْنَٰهَا ﴾ على بسطناها ، وقال : مادام ربنا قال مددناها وبسطناها ، فإن قلتم إنها كرة فلن نصدقكم . يعنى : إذن . . هو مؤمن بالحقيقة القرآنية . وما دام القرآن قال ذلك ، فلا يمكن أن توجد حقيقة كونية تخالفها .

نقول له : أنت فقط غلطت فى أن هذه حقيقة قرآنية ؛ لأن ﴿ مَدَدْنَٰهَا ﴾ لا تعطى ما تقوله . . لماذا ؟

كلمة : ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا ﴾ من أى مكان ؟ مادام ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا ﴾ فكأنك كلما وقفت على مكان فيه أرض ، لابد أن تجد أرضا أخرى ، يعنى : الأرض لا حافة لها . يعنى : لا يمكن أن تسير إلى أن تقف على حافة ثم تنتهى الأرض .

بل : ﴿ مَدَدْنَٰهَا ﴾ أى : كلما جاءت قدمك على مكان فى الأرض تجد أرضا أخرى ، كلما جئت إلى هذه الأرض وجدت أرضًا أخرى ، فهى ممدودة ، أى : غير مقطوعة . ولو أنها مبسوطة ، سواء كانت مستطيلة أو كانت مربعة ، سواء كانت على شكل مثلث ، أو كانت شكل مُعين ، إذن . . لها حافة . ومادام لها حافة ، فإذا مشيت إلى الحافة انتهى المد فيها .

لكن الله تعالى يقول : ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا ﴾ بمعنى أنك طالما وجدت على أرض فستجدها أمامك ممدودة ، وخلفك ممدودة ، وعن يمينك ممدودة ، وعن شمالك ممدودة ، ولا يتأتى ذلك أبدًا إلا إذا كانت مكورة ، فإن كانت على غير هيئة التكوير لا يمكن أن تنطبق الآية فى قول الله تعالى : ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا ﴾ .

إذن . . فالدليل الذى فهم منه الرجل المتعصب لدينه والمتعصب لصدق قرآنه ، الغلط فى فهم الحقيقة ، لكن لو فهمت الحقيقة على أنها حقيقة قرآنية ، والحقيقة على أنها حقيقة كونية ، فلا يوجد تعارض أبدًا .

وذلك كنا قد ضربنا مثلاً لذلك بأن أُناسا كثيرين من الذين يحلو لهم أن يجعلوا العلم الحديث يصادم قضية القرآن فى قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ﴾ وقفوا عند قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ﴾ ، قالوا : هذه لم تعد غيبا ؛ لأن الطب الحديث الآن أصبح من الممكن أن يعلم ما فى الرحم .

نقول له : صدقت ، ولكن من الذى قال لك إن الله حين قال ويعلم ما فى الأرحام أراد : ذكرا هو أم أنثى ؟

قوله تعالى : ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ﴾ ﴿ مَا ﴾ هذه عامة ، يعلم كل ما يتصل بما فى الأرحام ، ليس فقط ذكرًا وأنثى ، طويلا أم قصيرا ، شقيا أم سعيدا ، زكيا أم غير زكى ، عمره قصير أم طويل . أشياء كثيرة جدًا ، ليس كونه ذكرًا أو أنثى فقط . فأنت أخطأت فى فهم الحقيقة القرآنية ، وهي ليست حقيقة قرآنية .

ثم هب أن مدلولها كما تقول أنت أنه ذكر أم أنثى ، جدلاً سنسلم بهذا!

هل الحق سبحانه وتعالى حينما يعلم أذكر هو أم أنثى ، يوصى أحدا من خلقه بأن يأخذ عينة من حمل الأنثى أو من مادة الأنثى ليُحللّها ، وبعد ذلك يثبت أذكر هو أم أنثى ؟ لا . . إنما يعلم بدون أن يرسل أحدا ليأخذ عينة ويقول له ، ويخبر به ، ويبشر به قبل أن يوجد فى الرحم .

واقرأ قوله تعالى : ﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ ﴾ [مريم : ٧] لم يحدث حتى التقاء بين الرجل والمرأة وبعد ذلك أعلمه بما يكون فيه .

وهب أن واحدا كشف الله له عن بصيرته كما حصل لأبى بكر حينما تنبأ بأن ما فى بطن امرأته أنثى ، قال : « أخواتى وأختاتى » ولم يكن لها أخوات ، ففهم أنها ستلد أُختا ، فهذا إلهام من الله ألهمه .

هل الله قال لأبى بكر اذهب إلى الحمل وخذ عينة منه وحللّه ، لا ،

قال يعلم ما فى الأرحام بدون أن يقترب من المرأة ، وبدون أن يأخذ منها شيئًا ليُحللّه وبعد ذلك يقول : يعلم ما فى الأرحام .

أمّا أن نعلم الأشياء بواسطة مقدمات وبواسطة أشياء نأخذها من الأشياء فلا يقال إنك علمت مافى الأرحام .

إذن . . يجب أن نفهم أن الذين يخاصمون الإسلام يستوعبون كل ما قيل عن الإسلام سواء من الفاهمين للإسلام حقيقة ، أو من الذين لهم إخلاص للإسلام ولكن ليس لهم عقل الاستنباط فى الإسلام .

وما دام ليس لهم عقل الاستنباط فى الإسلام ، فنحن نهيب بمثل هؤلاء أن لا يُدخلوا القرآن فى مثل هذه المتاهة مادامو لا يستطيعون أن يبرروها أو يبرهنوا عليها ؛ لأن هؤلاء يأخذونها حجة علينا نحن ، وبعد ذلك ينقلونها من حجة علينا نحن إلى أنها حجة على الإسلام .

سلطان الله.. أم سلطان العلم ؟!

انتهينا فى الفصل السابق إلى قول خصوم الإسلام : إن علماء الإسلام فى تعصبهم للقرآن يختلفون فيما بينهم ، فبعضهم : يدعى أن القرآن قد تعرض لقضايا وحقائق علمية قبل أن تُكتشف بأربعة عشر قرنًا .

وعلماء آخرون : يقفون فى حقائق كونية انتهى العلم بها علما مشهديًا ولم يعد علما استدلاليًا ومع ذلك يعارضونها .

وتكلمنا عن قضيتهم فى كروية الأرض ، بدليل قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا ﴾ . وقلنا : إنه يجب حين نتعرض لقضية كونية أن نحتاط فى فهمها احتياطا لا يمكن خصوم الإسلام من أن ينقضوا فكر إسلام بفكر إسلام .

وقلنا : إنهم وقفوا أيضا عند قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ﴾ وبينا فساد ما ذهبوا إليه .

وقد جاءوا أيضا بشيء قامت حوله ضجة حينما وصل الإنسان إلى سطح القمر بواسطة المراكب التى بعثوها إلى القمر وبعضهم أنكر ذلك ، وبعضهم أراد أن يُدخلها فى مدلولات القرآن من قوله تعالى : ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴾ [الرحمن : ٣٣] .

فهلل كثير من علماء المسلمين بأن القرآن قد تنبأ إلى وصول الإنسان للقمر بهذه الآية ، وهو يريد بذلك - إخلاصًا منه لدينه - أن يبين سبق القرآن لقضايا جاءت فى القرن العشرين .

نحن لا نشك فى هذا وفى إخلاصه لإثبات قضية يثبت بها صدق القرآن

وبلاغ محمد صلى الله عليه وسلم عن الله فيه ، نحن لا نشك فى هذا . ولكن ليس الإخلاص كل شىء ، وإنما الإخلاص يجب أن يسنده عقل واعٍ ، وفكر حازم ، بحيث لا يتورط الإنسان ورطة يُمَكِّنُ بها خصمه منه فيكون الذى خسره من حقائق ثابتة أكثر مما يكسبه من حقائق لم يستطع أن يدلل عليها .

صحيح قال علماؤنا مثل هذا القول ، وأصبحت المسائل فى حالة لدرجة أننا نحن استفتينا فى مثل هذه الآية : هل وصول الإنسان إلى القمر يؤكده قول الله تعالى : ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴾ ؟

ومعنى السلطان هنا : قالوا إنه سلطان العلم ، وسلطان العلم مكنهم من أن ينفذوا .

فأجبناهم ، وهذا الجواب معنى به أيضًا أن يكون جوابًا لقضيتنا اليوم ، بأن مسألة القمر والشمس لم تأت فى الآية .

المسألة : أقطار السماوات والأرض ، ومعنى : أقطار السماوات والأرض ، يعنى لا تأخذ الأرض وحدها ، بل خذ أقطار السماء معها .

ونحن نعلم بالواقع الفلكى الذى قاله علماء غير المسلمين : إن الأرض سيار من السيارات أو تابع من توابع الشمس .

المجموعة الشمسية فيها : الأرض ، وفيها القمر ، وفيها المريخ ، وفيها المشترى ، وفيها زحل ، وفيها البتون ، وفيها أبانوس ، وفيها . . كلها مجموعة شمسية .

وقلنا : إنهم هم أنفسهم قالوا : إن المجرة التى مجموعتنا الشمسية منها فيها مائة مليون مجموعة شمسية .

ونحن بيننا وبين القمر هذه المدة البسيطة التى تتجاوز ثانيتين ، بيننا وبين الشمس ثمان دقائق ضوئية ، ومع ذلك أين السماء الأولى ؟ فبيننا وبين

السماء الأولى مجرات ومجرات ومجرات ، لدرجة أنهم هم أنفسهم قدروا بعض المسافات بمليون سنة ضوئية ، ومع ذلك هى دون السماء الدنيا ، فما مدخل أقطار السماوات فى الآية ؟

وهب أنهم ذهبوا إلى القمر وصعدوا ، فأين مدخل أقطار السماوات هنا ؟ أين أقطار السماوات ؟

أنا قلت تعليقا على هذه المسألة قديما : إن القمر يُعتبر ضاحية من ضواحى الأرض . . فما الذى أدخل السماء وأقطار السماء والأرض .

إذن كلمة : ﴿ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴾ لا يمكن أن تكون كما تقولون إنه بسلطان العلم ؛ لأنه لو قلنا : نستطيع أن ندخلها - ندخل أقطار السماوات بسلطان العلم مادام عندنا سلطان العلم ألا يكون ذلك قد دخل فى استطاعتنا ؟ ومادام قد دخل فى استطاعتنا ، فلماذا يقول الله تعالى بعدها : ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴾ بعد أن يقول : ﴿ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴾ يقول : ﴿ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ۝ ﴾ [الرحمن] . فما دام نفذنا بسلطان يرسل علينا لماذا ؟!

إذن . . هذه الآية لا تنطبق على هذه . . والعلماء المخلصون لدينهم ويريدون أن يدخلوها فى قضية سبق القرآن بالقضايا الكونية والقضايا العلمية نقول لهم : لا ، قبل أن تفعلوا ذلك افعلوه عن فهم ، حتى لا تتخذ هى ضدكم .

يأتى هو فيقول : هذا الاستثناء ما شأنه ؟

نقول له : هذا الاستثناء ﴿ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴾ نقول : والله إلا بسلطان فى الآية ، وبعد ذلك يأتى بـ : ﴿ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ۝ ﴾ يعنى : إذن هو ليس سلطان الناس ؛ لأنه لو سلطان الناس لا يكون بعد ما ننفذ بسلطان يقول : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا

تَنتَصِرَانِ ﴾ إذن فما هي ؟ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبر فيما أخبر أنه أُسرى به إلى بيت المقدس وعرج به إلى السماء ، فلو لم تجئ كلمة ﴿ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴾ هنا ، لكان بمجرد أن تقال هذه الآية حين يتحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه ذهب إلى السماء نقول له : لم يحصل لأن ربك يقول : ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ ﴾ لو لم يجئ الله بـ : ﴿ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴾ أي : إلا بسلطان منا . فتكون : بسلطان من الخالق .

هو الذي يلغي القوانين ويُلغي النواميس ويجعل واحدًا منكم ينفذ إلى أقطار السماوات ويكون صادقا حين يقول : لو لم يأت هذا الاستثناء لكان من الممكن أن تكذب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما حدَّث به من أنه صعد إلى السماوات ، وصعد حتى تجاوز السماوات السبع إلى ما وراءها ، إلى سدرة المنتهى ، وإلى ما وراء سدرة المنتهى .

إذن . . نأخذ من هذا أن العلماء المسلمين يجب أن لا يغفلوا بسبب إخلاصهم عن كثير من القضايا التي قد يدرسها خصومهم فيأخذون منها حجة تكون الخسارة بها أكثر من الكسب بها .

وعلى هذا يجب أن نساير كل رد يتجه إلى الإسلام بأننا لابد أن نفرق بين الحقيقة من حيث إنها حقيقة ، وبين أمر نظن أنه الحقيقة .

أن تعتبر حقيقة قرآنية ، وهي ليست حقيقة قرآنية ، بل فهمك أنت ، أو تعتبر حقيقة كونية وهي ليست حقيقة كونية . فإن انتهيت على أن هذه حقيقة قرآنية بمقاييس الحقيقة ، وهذه حقيقة كونية بمقاييس الحقيقة ، فلابد أن يلتقيا .

موافقات القرآن
لعمر بن الخطاب
رضي الله تعالى عنه

وآخر ما اعترض به المعترضون ، أو ما أذاعه المفترون على الإسلام : أنكم تؤمنون بأن محمدا مبلغ عن اللّه ، والواقع ينقُضُ ذلك ؛ لأن محمدا نشأ فى جزيرة العرب ، وله إخوان عاصروه ، ومن الإخوان الذين عاصروه عمر بن الخطاب .

وعمر بن الخطاب بشهادة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، ـ قرأوا التاريخ وعارفين جيدًا هذه الجزئيات . فلما قرأوا التاريخ وجاءوا لمسألة أسرى بدر ، ورسول اللّه يقول لعمر : « لقد كان يُصيبنا شر كبير فى خلافك يا عمر » ـ عمر أشار بشىء وأبو بكر أشار بشىء ، ورسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم كان قلبه مع مشورة أبى بكر فى مسألة الأسرى .

فلما حدث ما حدث ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الأنفال] .

الرسول صلى اللّه عليه وسلم قال فى هذه القضية : « كاد يصيبنا شر فى خلافك يا عمر »[1] .

إذن . . هم يقولون ثبت أن مثل محمد ـ يعنى من العرب المعاصرين له ـ

---

(١) قال عبد اللّه بن مسعود رضي اللّه تعالى عنه : فضل الناس عمر بن الخطاب بأربع : بذكر الأسرى يوم بدر ، أمر بقتلهم فأنزل اللّه تعالى : ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [الأنفال : ٦٨] .

يستطيع أن يأتي بأشياء تكون عجيبة ، وتكون متميزة . بدليل أن أشياء كثيرة جدًا سبق فيها عمر القرآن . لم يقولوا : وافق القرآن فيها عمر ؛ لأنه يوجد فرق بين الأمرين ، فرق بين قولك : سبق عمر القرآن ، ووافق القرآن عمر .

= وبذكر الحجاب : أمر نساء النبيِّ صلى الله عليه وسلم أن يحتجبن فقالت زينب : وإنك علينا يا ابن الخطاب والوحي ينزل في بيوتنا ؟! فأنزل الله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ﴾ [الأحزاب : ٥٣] وبدعوة النبيِّ صلى الله عليه وسلم له اللهم : « أيد الإسلام بعمر وبرأيه في أبي بكر كان أول الناس بايعه » .[1] وفي مختصر تفسير ابن كثير : لما كان يوم بدر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما تقولون في هؤلاء الأسارى ؟ » فقال أبو بكر : يا رسول الله قومك وأهلك ، استبقهم واستتبهم لعل الله أن يتوب عليهم ، وقال عمر : يا رسول الله كذبوك وأخرجوك فقدمهم فاضرب أعناقهم .

وقال عبد الله بن رواحة : يا رسول الله أنت في واد كثير الحطب فاضرم الوادي عليهم نارا ثم ألقهم فيه ، قال : فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يرد عليهم شيئاً ، ثم قال فدخل ، فقال ناس : يأخذ بقول أبي بكر ، وقال ناس : يأخذ بقول عمر ، وقال ناس : يأخذ بقول عبد الله بن رواحة ؛ ثم خرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « إن الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن ، وإن الله ليشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة ، وإن مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم عليه السلام قال : ﴿ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [إبراهيم : ٣٦] ، وإن مثلك يا أبا بكر كمثل عيسى عليه السلام قال : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [المائدة : ١١٨] ، وإن مثلك يا عمر كمثل موسى عليه السلام قال : ﴿ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ [يونس : ٨٨] ، وإن مثلك يا عبد الله كمثل نوح عليه السلام قال : ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾ [نوح : ٢٦] أنتم عالة فلا ينفكن أحد منهم إلا بفداء أو ضربة عنق » .

قال ابن مسعود : قلت يا رسول الله إلا « سهيل بن بيضاء » فإنه يذكر الإسلام ، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم فما رأيتني في يوم أخوف من أن تقع عليَّ حجارة من السماء مني في ذلك اليوم حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إلا سهيل بن بيضاء » ، فأنزل الله عزَّ وجلَّ : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ ﴾ إلى آخر الآية . رواه الإمام أحمد [١/ ٣٨٣] وقال الشيخ شاكر : إسناده ضعيف وقال الأرناؤوط : إسناده ضعيف لانقطاعه والترمذي [٣٠٨٤] وقال الألباني : ضعيف ، والحاكم في المستدرك [٣/ ٢٤/ ٤٣٠٤] وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

---

(١) رواه أحمد في المسند [١/ ٤٥٦] وقال الشيخ شاكر : إسناده حسن وقال الأرناؤوط : حسن لغيره وهذا إسناد ضعيف .

نقول له : هذا صحيح . بدليل قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾ [البقرة : ١٢٥] .

وفى الحجاب : « ألا قد عرفناك يا سودة » وقول عمر : « يدخل عليهم البر والفاجر يا رسول الله » [(١)] ثم شرع الله الحجاب .

نقول له : وافق القرآن ما قاله عمر رضي الله تعالى عنه .

نقول له : هذه ملحظية لو أن الناس فطنوا لها ؛ لأكد ذلك صدق القرآن فيما يأتى من القضايا التى تتصل بالفطرة السليمة .

فكأن القرآن ترك لمثل عمر أشياء يقترحها بفطرته الصافية .

---

(١) روى البخارى [١٤٧] ، ومسلم [١٨/٢١٧٠] عن عائشة رضي الله تعالى عنها ؛ أن أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم كن يخرجن بالليل ، إذا تبرزن ، إلى المناصع وهو صعيد أفيح . فكان عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه يقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم : احجب نساءك . فلم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل . فخرجت سودة بنت زمعة رضي الله تعالى عنها ، زوج النبي صلى الله عليه وسلم ليلة من الليالى ، عشاء . وكانت امرأة طويلة . فناداها عمر : ألا قد عرفناك . يا سودة! حرصا على أن ينزل الحجاب . قالت عائشة :

فأنزل الله عز وجل الحجاب .

روى أحمد فى المسند [١/ ٢٣] قال عمر رضي الله عنه وافقت ربي فى ثلاث قلت يا رسول الله لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى فنزلت ﴿ وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾ [البقرة : ١٢٥] وقلت يا رسول الله إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر فلو أمرتهن أن يحتجبن فنزلت آية الحجاب واجتمع على رسول الله نساؤه فى الغيرة فقلت لهن : ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ ﴾ [التحريم : ٥] قال : فنزلت كذلك . وقال الشيخ شاكر : صحيح ووافقه الأرناؤوط .

وفي البخارى [٤٤٨٣] قال عمر : وافقت الله فى ثلاث أو وافقني ربي فى ثلاث قلت يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى ، وقلت : يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب فأنزل الله آية الحجاب ، قال : وبلغني معاتبة النبي صلى الله عليه وسلم بعض نسائه فدخلت عليهن قلت : إن انتهيتن أو ليبدلن الله رسوله صلى الله عليه وسلم خيرا منكن حتى أتيت إحدى نسائه قالت يا عمر أما فى رسول الله ما يعظ نساءه حتى تعظهن أنت فأنزل الله ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ ﴾ الآية . وبنحوه مسلم [٢٣٩٩/ ٢٤] .

ولكن أين كانت فطرة عمر الصافية يوم كان يريد أن يقتل محمدا ؟ أين كانت هذه ؟!

أين كانت فطرته يوم عاداه المعاداة الشديدة ؟!

أين كانت فطرته يوم ذهب فلطم أخته ؟!

أين كانت فطرته هذه ؟!

إذن . . فالفطرة الذى نفض عنها غُبار الجاهلية هو الإسلام . هذه هى الفطرة . فلو قيس بغير إسلام ، لكانت فطرة منطمسة ، فما الذى أزاح عن الفطرة الغشاوة التى لحقتها من أمور الجاهلية ؟ إنه هو الإسلام .

وبذلك يقول عمر نفسه : « من أنا لولا الإسلام » ؟

ماذا عمر لولا الإسلام ؟! فكأنه يُقر بهذا .

فما العلة فى أن عمر يكون موجودا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يُوحىٰ إليه من الله ، ومع ذلك يأتى عمر فيقترح أشياء يأتى القرآن ليوافقها ؟!

نقول : هذا الذى كان يجب أن تسأل عنه .

نقول له : لأن الله يريد أن يقول لنا : إننى لم أتعبدكم بشىء يخالف الفطرة السليمة ، ولو أن فطرة سليمة استيقظت بحق ، لوصلت إلى قضايا الإسلام من نفسها . ولكن من يضمن لنا أن الفطرة تظل صافية ؟

إذن . . فالإسلام جاء ليزيح الغبار والتراكمات التى على الفطرة حتى تنصع الفطرة ، فأنت إذا جئت لمصباح ، هذا المصباح علقت به أتربة ووساخات سترت ضوءه ، كما نقول فى التعبير الدارج : « طلمسته » ، وبعد ذلك جئت فأزحت هذا الغبار ، وأزحت القذارة ، وغسلت الزجاجة ، فسطع النور فأنت لا تكون قد جئت بشىء زائد ، أنت فقط صقلت الفطرة والأغبار التى لحقت بالفطرة فتجلت الفطرة بنصاعتها الطبيعية ، فكأن الله بتركه كثيرا من القضايا ليقولها تابعٌ من أتباع محمد صلى الله عليه وسلم

أخلص فكره للدعوة لله . وصُقِلت فطرته ، فعندما ينظر هكذا إلى أقضية الحياة ، فتستطيع فطرته أن تهديه إلى كثير من قضايا الدين .

إذن . . الله سبحانه وتعالى جعل هذه المسائل ليثبت لنا أنه سبحانه وتعالى لم يتعبدنا بأشياء نحن بعيدون عنها .

إذا صفت فطرة أى إنسان وجلس لينظر إلى أى قضية ، يقول : لو لم تأت من السماء لنبعت من صفاء الفطرة فى الأرض .

إذن . . فهذا هو الذى يجب أن نفهمه من أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ترك الله له بعضًا من القضايا ليقول بها ، وبعد ذلك يأتى الإسلام ليوافق ما قاله عمر .

دليل على أن الإسلام يجيء بما يوافق الطبع السليم والفطرة الصافية . . هذا ما استطعنا أن نأتى به فى الزمن المقرر لنا [1] .

وهناك كثير من هذه الأشياء إلا أن ما ذكرناه هى أُمهات هذه المسائل .

❁ ❁ ❁

(١) روى البخارى [١٣٥٨] ، ومسلم [٢٦٥٨/ ٢٢] عن أبى هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : ما من مولود يولد إلا على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء .
ثم يقول أبو هريرة رضي الله تعالى عنه : ﴿ . . . فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا . . . ﴾ [الروم : ٣٠] الآية .

نبذ الاختلاف والفرقة

انتهينا بعون الله إلى عرض كثير من المفتريات المعدة لنا ، التى وفد بعضها ، ويوشك بعضها أن يفد على بيئتنا الإسلامية .

وإذا كان هذا مما أُعلن من توصيات المؤتمرات المختلفة ، فما بالك بما لم يُعلن مما قيل عنه أنه سيعلن فى حينه .

بالقياس إلى الأشياء ، لابد أن يكون هناك أخطر من هذا ، وإلا فما الذى ستره إن كان مساويًا فى الخطورة أو أقل فى الخطورة .

كل هذا شاء الله أن يتسرب إلينا ، وربما كان بعضه هو الذى أعان على أن يتسرب إلينا هذا الشىء : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴾ .

فإذا كان الله كما فضح سابقًا « بروتوكولات صهيون » فى سنة سبعة عشر حينما عُقدت بواسطة واحدة داعرة ، كانت الأوراق فى حقيبة سكرتير اللجنة ، وبعد ذلك سَكِرَ فأرادت أن تعرف ما فى الحقيبة فوجدتها هذه فباعتها .

إذن . . منهم أنفسهم ، هم الذين جاءوا لنا بهذه « البروتوكولات » ، وعرفنا مخططاتهم ونواياهم ، فكذلك هذه المسألة .

إذن . . الله لأنه يريد خيرا ببقاء الإسلام محفوظا سَرب إلينا هذه المسائل ، فيجب أن نفيد من تسربها إلينا ، وأن نعمل جاهدين على أن نستقبلها بالمناعة الإيمانية والحصانة الإسلامية ، وهذا لا يتأتى إلا إذا تكتلنا جميعا بحيث نقف أمام هذه الوافدات يدًا واحدة ، تتمثل فى أولياء الأمور للنشء ، بأن يعرضوا هذه القضايا بذاتها ، ويعلموا أبناءهم ومن هم فى ولايتهم أن مثل هذه الوافدات ستفد عليهم ويلقنوهم مع الوافدات خلاصة الردود عليها .

وعلى الشباب حين يُفاجأ بمثل هذا أن يلجأ إلى من يرى أنهم حريصون على الشباب ، وأن مصالحهم المادية مطلوبة منهم ، فعلى النشء إن أصابه شيء من ذلك أن يفزع إلى ولى أمره ، كما يفزع إليه فى مطلوب مادى لحياته ، من طعام أو شراب أو كساء ، يفزع إليه لأن مقومات قيمه أكبر من مقومات بنيانه ، فيجب أن يفزع إليه ليقولها .

ويجب على أولياء الأمور إن علموا الردود أن يحسنوا إعطاء المناعة لأبنائهم من هذه الردود ، وإن لم يعلموا عليهم أن يذهبوا إلى أهل الذكر ليأخذوا منهم الردود التى تقف أمام هذه الوافدات ، هذا ما يكون على أولياء الأمور وعلى النشء .

وأما ما يكون على العلماء ، فإنه يجب أن يكون الدعاة على ذكر من كل هذه القضايا ، وكل واحد منهم يُبْصر مجاله بما يُراد من الكيد للإسلام ، وعليه أن يعرض كل هذه الوافدات مع الردود عليها ، وأن يبالغ فى تكرارها حتى تستقر فى أذهان الناشئة ، وأذهان أولياء أمور الناشئة ، استقرارا يحاول أن يستقبلها لأنه جاهز بالرد عليها ليرديها .

وعلى العلماء أن يلاحظوا أنهم حين يتكلمون عن الإسلام ؛ لا يتكلمون عنه فقط أمام المسلمين الذين يقدسون الإسلام فيحترمون كل ما يمكن أن يقال عنه ، وبين أنه سيصل إلى خصوم الإسلام فيحاولون جاهدين أن يكون إسلامهم مصفى ، ومصفى من كل خلاف . . لأن الخلاف ، يستغل فى أن الإسلام ليس له خط واضح يجتمع حوله الناس ، ولكنه أصبح خطوطا متفرقة يتوزع عندها الناس .

وعليهم بعد ذلك أن يأتوا للأشياء التى لها قيمة انتقائية فى المجتمع وألا يُفتى واحدٌ منهم فيها ، وعليهم أن يجتمعوا فى كل بلد إسلامى ، إن لم يجتمعوا فى كل البلاد الإسلامية ليضعوا الحكم الشرعي بالتصويت عليها من العلماء ، فإذا ما انتهوا إلى قضية ، فيجب ألا يبقى مع انتهاء كل قضية بإدراج حكم فيها ، لا يجب أن تبقى الآراء المخالفة .

فكل جماعة يجتمعون ليناقشوا أمرا ، ثم ترى الأغلبية المجتمعة رأيا من الآراء ، فيجب ألا يحتفظ المعارض برأيه ليعلنه ، وإنما وجب بحكم انضمامه وانضوائه إلى هذه الجماعة أن يُصبح فكر الأغلبية ، أو فكر ما انتهى إليه المؤتمر هو الفكر الذى يدافع عنه .

فله أن يعرض رأيه أمامهم ، لكن إذا ما انتُهى إلى رأى وإلى حكم ؛ يرحم المسلمين من هذه الاختلافات حتى لا يوجد فى المسألة إلا حكم واحد .

فإن كانوا قد احترموا وجهات النظر فى الأحكام الفرعية الاستنباطية ، فعليهم أن يقولوا : ومن أخذ بهذا الحكم فهو إسلامى ، ومن أخذ بهذا الحكم فهو إسلامى ، ومن أخذ بهذا الحكم فهو إسلامى لينهوا من بحوث الفقهاء والمجتهدين أن الرأى الحق هو ما يراه كل واحد وتلك ميزة الفتوى الجماعية .

لم يعد العصر الآن يحتمل أن يكون لكل عالم فتوى وإلا أصبح لكل عالم جمهور ، وأصبح لكل عالم متعصبون ، وحين يوجد ذلك نكون من ﴿ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ﴾ [الأنعام : ١٥٩] .

إذن . . مهمة العلماء أن يأتوا إلى الأشياء التى فيها خلافات ، ويبحثوها ، هذا البحث ينتهى إلى حكم ، يلتقون عنده جميعا ، الذى أيده والذى عارضه ، وليعاملوا قضية الدين وقضية الحق كما يعاملون قضاياهم السياسية .

فهب أن برلمانا اجتمع ، ثم أقرت أغلبيته الحكم أتظل الأقلية على رأيها ، أم يظل الجميع فى قمة الحكم الذى انتُهى إليه بالتصويت والأغلبية .

كذلك يجب أن تكون قضايا الدين ، ويجب أيضًا على حكام المسلمين أن يفهموا أنهم بتركهم الإسلام للهوايات الشخصية ، فكل إنسان هاوٍ سيكون له إسلام . هذا الإسلام سيتمثل فى السلطة المركزية ، كل واحد يحب أن يكون له سلطة ، وله أتباع ، وله دراويش .

وبعد ذلك يتمايزون فيما بينهم ، ولكل واحد منهم طقوس ، ولكل واحد منهم عبادة ، ولكل واحد منهم مسجد .

كل هذا يفت فى عضد المسلمين وفى اجتماعهم على كلمة واحدة ، ويجعل خصوم الإسلام يسهل عليهم أن يخاصموا الإسلام .

ولو أن كل حكومة شرفت بأنها حكومة إسلامية ، وكانت إسلامية بحق ، لجعلت الدين من الأشياء التى يجب أن يحافظ عليها .

الدول الحاكمة تستطيع أن تحافظ على أى نظام ارتضته لتحكم به ، ولو كان هذا النظام من وضع البشر ، فما بالهم يتكاسلون على أن يحموا نظام اللّه ليُسيطر منهج اللّه على حركة الوجود وحين يُسيطر منهج اللّه على حركة الوجود ، لا يكون الدين عندنا هوايات ، ولا يكون هوايات إلا إذا لم يكن له صاحب ، والصاحب الآن يجب أن يكون الدولة التى تحمى كل نظام ترتضيه وإلا سيعارض الحكام إيمانهم ، ولا يقولون علينا مسلمين بالكذب ، لا ، بل نريد أن المسلم يكون مسلما بحق وإلا ليريحنا من أن يكون مسلما ، حتى لا يكون فعله حجة على الإسلام .

وليعلم الجميع أن اللّه سبحانه وتعالى يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن ؛ لأن القرآن إنما يأتى متأخرا فى الآخرة ، والدنيا تريد نظاما . تريد نظاما يصلحها الآن ، فإن جعلنا الأمور كلها تتأخر للآخرة ، يفسد نظام الوجود كله .

ولذلك يقول الرسول : « إن اللّه يزع بالسلطان مالا يزع بالقرآن »[1] . لأنه لا يزع بالقرآن إلا المؤمن التقى ، ولكن يزع بالسلطان العاصى ؛ لأن عقوبته عقوبة عاجلة .

---

(١) روى الخطيب : عن عمر بن الخطاب رضي اللّه تعالى عنه قال : واللّه لما يزع اللّه بالسلطان أعظم مما يزع بالقرآن . كما فى الدر المنثور للسيوطى .
وذكره الحافظ ابن كثير فى « قصص الأنبياء » منسوبا إلي أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي اللّه تعالى عنه بلفظ : « إن اللّه ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن » .

وليفهم الجميع أنه لا يكفى أن يوجد عندنا إسلام بل يجب أن يكون الإسلام فى أيد مسلمة . قال الشاعر قديما :

وعادة السيف أن يزهى بجوهره وليس يعمل إلا فى يدى بطل

لا يضرب السيف وحده أبدًا ، بل لابد أن يكون فى يد شجاع ، لابد أن يكون فى يد فارس .

نحن يجب علينا أن لا نغمد إسلامنا ، يجب أن نَسُلَّ إسلامنا ، نسل إسلامنا ليقف أمام جنود الباطل وقفة ترد كل واحد إلى حجمه الطبيعى ، حين نفعل ذلك يعلم الناس جميعا أن للإسلام صاحبا .

والرسول صلى الله عليه وسلم يضع الأمور وضعا طبيعيا ، فيقول فيما يؤثر عنه : « الإسلام أُسٌ » أساس الأشياء . « والسلطان حارس ، وما لا أُسّ له يُهدم ، وما لا حارس له ضائع » [1] .

فالأمم التى لا إسلام لها ، لا أساس لها ، والإسلام الذى لا سلطان له يحميه ، يكون ضائعا .

فنحن الآن إما أن نكون مسلمين بحق ، وإما أن نُعفى الدنيا من دعوى الإسلام حتى يظل الإسلام إلى أن يُوجد مسلمون بحق ، ويجب أن نعلم أن الحال الذى ينتظر الدنيا كلها ، حال ليس طبيعيا مع ارتقاءات هذه الدنيا ، لأن الأمر الطبيعى فى ارتقاءات الدنيا أن يكون كل ارتقاء يأتى بقوة جديدة تزيد رفاهية العالم ، أو يزيد فى سلامه ، وأن يزيد فى أمنه ، وأن يزيد فى خيره ، وأن يزيد فى اطمئنانه .

أمّا أن يكون الأمر كلما تقدمنا فى الارتقاء المادى نتأخر فى الارتقاء القيمى ، ويصبح العالم بهذا الشكل الذى نراه ؟ دنيا مفزعة ، دنيا قلقة ، حتى الأقوياء فى قلق ؟! ما هذا ؟ فلابد أن يبحثوا عن شىء مفقود ، استوت

(١) ذكره المتقى الهندي فى كنز العمال [١٤٦١٣] وعزاه إلى الديلمى . عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما .

لهم كل أمور الحياة المادية ، فيجب أن يلتفتوا إلى الناقص منهم . لا ناقص إلا أن منهج اللّه فى كل أرض معطل ، ولا تغتروا بأن الغرب عالم مسيحى ؛ فالمسيحية الآن هناك ليست دينية بالمعنى المفهوم والمراد للّه .

المسيحية هناك مسيحية سياسية ، ليست مسيحية دينية بالمعنى الحقيقى .

ولذلك نجدهم - الذى يريد أن يعلم هذا - فليذهب إلى الكنائس ليعلم من الذى يذهب إليها ؟ ما الذى يصنعونه من المغريات ليقبل الشباب عليها ؟! يصنعون مغريات يندى لها الجبين .

كل هذا يدلنا على أن المسألة مسألة فكر سياسى ، أخذ المسألة الدينية فقط ستارا ، وعلينا جميعا أن ننظر إلى عالمنا نحن ، لا ضرورة أن نبحث فى العالم الآخر ، بل نبحث فى عالمنا الإسلامى ، سنجده عالما متعبا ، عالما قلقا ، عالما مضطربا ، عالما متخلفا ، عالما الكل أدخله فى الدول النامية .

ومعنى « الدول النامية » الاسم كلمة « نامية » هذه تفاؤلاً ، يعنى الناس التى تريد أن تنمو ، ليست هى نامية بالفعل كما يسمون الصحراء المهلكة إذا قطعها الإنسان يسمونها « مفازة » .

« المفازة » هذه يعنى إيذانا ، أو إيناسا بأننا ننجو منها . ويسمون الملدوغ بالحية : « سليما » تفاؤلاً بأنه يُشفى .

فالمسألة عندنا فى كلمة : « دول نامية » يعنى معناها : أنها دول متخلفة . ننظر إلى أن المسلمين أنفسهم كما قلت سابقا : وُجد منهم طائفتان تقتتلان ، وللأسف لم توجد الطائفة الثالثة ، مما يدل على أن المسألة عمت الجميع ، وليثق هؤلاء جميعًا أن اللّه سبحانه وتعالى لا يتغير ، ولكن يجب أن نتغير نحن من أجل اللّه ، فإن لم نتغير نحن من أجل اللّه ، فسيظل أمرنا كما هو ، وسيزداد سوءًا كل يوم .

وحين نلتفت إلى أننا قد قصرنا فى واجبات ديننا يكون ذلك أول الشفاء .

أما إذا استعلينا وتكبرنا وادعينا أننا نحن مسلمون ، فلا يوجد أمل فى أن نُشفى لأن الاعتراف بالمرض أول وسيلة فى إدراك الشفاء .

أسأل الله سبحانه وتعالى أن ينبه المسلمين إلى أهمية دينهم ، أو أن ينبه المسلمين إلى الخطر الذى يُحدق بهم من كل خصوم الإسلام من كل لون ، سواء كان من الشرق أو من الغرب ، ويجب أن يعلموا أن الشرق والغرب كلاهما يريد ذُلا للإسلام ، ولذلك يلتقيان حينما يُصاب أى قطر إسلامى بسوء ، فهم يريدون أن يفنى المسلمين فيما بينهم .

وعلينا جميعا أن نلتفت إلى أنه لا منجا مما نحن فيه إلا أن نلجأ إلى الله ، وإذا ما خطونا إلى الله خطوة ، خطا الله لنا خطوات ، أو إذا ما مشينا إلى الله ، أتى إلينا الله هرولة [1] . والله سبحانه وتعالى ولى التوفيق .

❁ ❁ ❁

(١) روى البخارى [٧٤٠٥] ، ومسلم [٢/٢٦٧٥] عن أبى هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقول الله عز وجل أنا عند ظن عبدي وأنا معه حين يذكرني إن ذكرني فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرني فى ملإ ذكرته فى ملإ خير منهم ، وإن تقرب مني شبرا تقربت إليه ذراعا ، وإن تقترب إلي ذراعا تقربت منه باعا وإن أتاني يمشي أتيته هرولة » .

العظة.. والعبرة

من إحياء المناسبات الدينية

فما أحسن أن يستقبل المسلمون مواسم الإسلام ، وأن يعيشوا هذه المواسم ليحيوا فيها نفوسهم بما أحياهم به الله ، من دين ينظم حركة حياتهم ، ويهديهم إلى طريق الرشاد .

ولكن الخطر فى ذلك أن يعيش المسلمون المناسبة فقط ، ثم تمر المناسبة وكأن شيئا لم يكن .

وكثيرا ما احتفل المسلمون بمناسباتهم ، وضحوا فى كل مناسبة بحفاوة بالغة ، ولكننا لم نشهد من آثار هذه الصحوة فى حياتهم ما يريده الله من استمرار المناسبة فى كل زمان وفى كل مكان .

ولقد تكلمت كثيرا ، وسمعنى الناس كثيرا ، لولا أنى أعتذر لنفسى أنى أستقبل فى كل مرة وعيا جديدا لشىء جديد ، لم يسبق له أن استمع ، لما وجدت من نفسى شجاعة أن أكرر ما قيل كثيرا .

ولكن عُذرى أمام نفسى أن الأحداث تمر ، والأحداث تزداد ، وكل شىء فى الوجود ينمو ، فأنا أستقبل بحديثى اليوم من استقبلوا وعيا جديدا لفهم دينهم وفهم إسلامهم .

والحق أن أضخم مناسبة يحتفى بها المسلمون هى مناسبة شهر رمضان ، وحُقّ لشهر رمضان أن يُستقبل ذلك الاستقبال ؛ لأنه الشهر الذى جعله الله ظرفًا لميلاد الهدى السماوى للإنسان المشرف فى الوجود .

وشاء الله أن يربط موسم ذلك الهدى بحدث يُخرج الناس عن

عادتهم ، وعن الفهم فيما يطعمون ، وفيما يشربون ، لتظل المناسبة معقودة بشيء لا يمكن أن يُسهىٰ عنه ، ولا أن يُلهىٰ بسببه .

ورمضان فيما يُستقبل إنما يُستقبل لأنه شهر اصطفاه الله ، ليصطفى فيه من الرسل من جعله أهلاً لحمل منهج السماء إلى أن تقوم القيامة .

وشاء الحق سبحانه وتعالى أن يجعل من صيام ذلك الشهر دُربة للنفس على تحمل الجوع الذى هو قوام الحياة الأساسية .

وحين يتعود الإنسان ما اعتاده قبل اليوم يسهل عليه بعد ذلك أن يعتاد ترك ما حرم الله ، وأن يعتاد تحليل ما أحل الله .

وشهر رمضان بهذا المعنى شهر اصطفائى زمانى ، والرسول صلى الله عليه وسلم الذى شرف الله به ذلك العالم اصطفاءً إنسانى .

ويشاء الحق أن ينزل القرآن وهو اصطفاء الهداية المنهجية النهائية فى الشهر الذى اصطفاه الله على الرسول الذى اصطفاه الله .

إذن . . فرمضان مجموعة اصطفاءات لا يريد الله بها إلا أن يشيع اصطفاء الزمان فيه إلى اصطفاء كل الأزمنة وإلى أن يشيع اصطفاء الهدى فيه إلى كل حركة فى الوجود ، وإلى أن يكون الإنسان نموذجًا إيمانيًا يستقبل أوامر الله كما استقبل امتناعه عمَّا أحل الله فى كل يوم ثم حرمه فى ذلك وهو شهر الصوم .

والإنسان فى الوجود يجب أن يتنبه إلى أنه غاية ذلك الوجود ، ولأنه المهمة الأساسية لذلك الكون ، فالكون بكل أجناسه وبكل أنواعه خلق لذلك الإنسان ، فما أكرم الإنسان على الله .

ولكن الإنسان يجب أن يكرم عند نفسه ؛ لأن الله الذى كرمه سخر له كل ما فى الوجود فى خدمته ، ولم يمتنع جنس من الأجناس عن هذه المهمة لأنه مجبور عليها وليس مختارًا فيها .

ومن العجيب أن يطلب الله من الإنسان المختار أن يطلب منه ما يحييه وما يسعده ليجزيه عليه جزاءً أوفى يوم تقوم الساعة .

ومن العجيب أيضًا أن الحق سبحانه وتعالى حينما اصطفى ذلك الإنسان اصطفاه ؛ لأنه مختار ، واصطفاء الاختيار فوق اصطفاء الإجبار والقهر ؛ لأن المقهور على حركة إنما ارتضى أن يكون مقهورًا ؛ لأنه لا يأمن على نفسه أن لا ينفذ باختياره ما يريده الله منه .

ولكن الإنسان حين يسود هذا الكون ويسود هذه الدنيا يجب عليه أن يلحظ غايته من هذا الوجود .

فكل شيء في الوجود أمام الإنسان له مهمة يؤديها ، وله عمل يقوم به ، ومن العجيب أن كل جنس أدى مهمته وأدى عمله كما أراده الله مجبورا عليه .

ورضي المقهور بالقهر ، ورضي المسخر بالتسخير ، ومن العجيب أن المختار لم يرض بالاختيار ، فالحق سبحانه وتعالى حينما يطلب من عباده الذين اصطفى لهم الدين واصطفى لهم الرسول ، أن يكونوا على وفق ما يريده الله بمحض اختيارهم إن لم يطلب منهم ذلك اقتحامًا عليهم ، ولكنه طلبه منهم بعد أن هيأ لهم كل كرامة الوجود : استقامة بنية ، واستقامة تكوين ، وتكريم شكل ، وتكريم عناصر ، وبعد ذلك يسر لهم من الخدمة ما لم يستطيعوا أن يجعلوه لأنفسهم ، وخلقت لهم الأشياء قبل أن يوجدوا لتكون في استعداد لاستقبالهم في هذه الحياة .

وكل أجناس الوجود في مهمتها كما قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب : ٧٢] .

حين يستعرض الإنسان الكون الذي يعيش فيه لا يمكن أن ينسب حياته لنفسه ، ولا لمثله ، ولا أن ينسب النعم التي يتنعم بها إلى نفسه ، ولا إلى مثله .

فكان من الواجب حين يوجد في ذلك الكون أن يلتفت لفتة لمن

أوجده ، وهو لم يدعها ولم يدّعها سواه ، وأن يلتفت لفتة أخرى لمن أنعم عليه .

إن الإنسان وجد نفسه فى ذلك الكون ، ووجد أشياء له ، ووجد نفسه سيدا لهذا الكون ؛ لأن كل الكون يأتمر بأمره ؛ ولأن كل الأجناس دونه تصب فى خدمته ، فكان من الواجب عليه أن يسأل : من أوجدنى ، ولم وجدت ، وماذا أفعل ؟ لم يشأ الحق سبحانه وتعالى أن يترك الإنسان ليسأل نفسه هذه الأسئلة ؛ لأنه ينتظر الإجابة من مثله ، ومثله لا يستطيع الإجابة ، لأن مثله أو السابق عليه إنما هو مخلوق أيضًا ، فالسؤال دورى منه قبل أن يكون من الإنسان .

إذن . . فكان من الواجب على الإنسان أن يسأل نفسه ، مادام يستقبل الأشياء وكل شىء له مهمة فى حياته ، كان يجب عليه أن يسأل نفسه : ولماذا خُلقت ؟

لم يشأ الله سبحانه وتعالى أن يسأل الإنسان ذلك السؤال إلا بالرحمة التى أنزلها الله على رُسُله ، لينبههم إلى مهمتهم التى خلقوا من أجلها .

الله سبحانه وتعالى له كل الكمالات ، فهو لا إله إلا هو ، وهو قادر ، وهو عالم ، وهو قهار قبل أن يخلق شيئا فى الوجود .

إذن . . فإيجاد شىء فى الوجود لم يجد لله صفة من صفاته ؛ وإنما وجد الوجود بآثار وجود صفات الكمال فيه سبحانه .

إذن . . فالكمالات لله بها وجد الإنسان ، والكمالات لله بها وجدت النعم التى تحوط الإنسان .

إذن . . يجب أن يسأل الإنسان نفسه : ما مهمتى ؟

قلنا ولا نزال نقول ، وأكرر ولا أزال أكرر : إن الصنعة لا تستطيع أن تحدد مهمتها . فكل صنعة فى الوجود من صناعات البشر ، صانعها هو الذى يحدد مهمتها . وفساد الإنسان فى الكون إنما نشأ من أن الإنسان يريد أن

يحدد لنفسه مهمة ، فقولوا للإنسان الذى يدعى ذلك : أى صنعة من الصناعات وضعت لنفسها مهمة ؟

لا ؛ إنك أنت إن صنعت صنعة إنما تضع أنت مهمة الصنعة ، وتضع قانون صيانة الصنعة ، فكان يجب ما دمت لم تدع صناعة نفسك ، وما دام لم يدع أحد مثلك أنه صنعك ، أن تترك من صنعك ليحدد لك مهمتك . وما هى مهمتك ؟

أتعود إلى من خلقك . لا . إن خالقك له كل صفات الكمال قبل أن يخلقك ، وله كل صفات الكمال مع خلقك ، وله كل صفات الكمال بعد أن يقبضك إليه ، وله كل صفات الكمال بعد أن يعرضك على عملك عرضا يحاسبك به على كل تصرف .

إذن . . فيجب أن لا تدّعى أنك بعبوديتك العبادية لله تزيد الله صفة من صفات كماله ، بل كل صفات الله موجودة قبل أن توجد ، ومصاحبة لك مع وجودك ، وستظل بعد فنائك ، ويكون لك وعليك القيامة بعد أن تبعث إليه حيًا .

الإنسان كما أراده الله ، أراد الله فى ذلك الإنسان أن يعطيه مهمة تناسب سيادته على سائر ما خلق الله .

فكل شىء فى الوجود - كما قلنا سابقا - يصب فى خدمة الإنسان .

قلنا : أقرب الأجناس إلى الإنسان هو الحيوان ، وبعد ذلك يأتى النبات ، وبعد ذلك يجيء الجماد ، فلنضرب مثلاً لكل هذه الأجناس :

ما مهمة الجماد ؟ أمهمته بالنسبة لنفسه ؟ لا ، إن مهمته بالنسبة إلى ما يعلوه من الأجناس . فالجمادات كلها تكون فى خدمة الأجناس التى تعلوها ، تكون فى خدمة النبات ، وتكون فى خدمة الحيوان ، وتكون فى خدمة الإنسان .

ثم يأتى بعد ذلك الحيوان ليكون فى خدمة من يعلوه ، فكان يجب

عليك أيها الإنسان أن تلتفت إلى مهمتك : مع من تكون ، وعلى أى منهج تسير ؟

إن لم تبحث عن هذا - فكما قلنا ونقول دائما - فإنك ستصير إن لم تجد لنفسك مهمة ، ستصير أقل من كل من خدمك فى الكون ، ستصير أقل من الحيوان ، وأقل من الجماد ، وأقل من النبات .

كل شىء فى الوجود له مهمة ، فيجب أن تبحث عن مهمتك التى شرفك الله ، فجعلك موضوع الاختيار .

والاختيار منحة من الله ، وما دام منحة من الله ، فإن كل اختيار له مقابل ، هذا المقابل أنك ستجازىٰ على اختياراتك .

تُجازىٰ على اختياراتك ما دمت مخلوقًا على هيئة الاختيار ، تفعل كذا ولا تفعل كذا ، ودعك من أنك تنفعل لسواك ، انفعالك لسواك لم يكن محط جزاء من الله ، فانفعالك لقوة غير قدرتك دخل فيها ، لا يدخل فى نطاق حسابك ، ولكن الله لا يحاسبك إلا على القدر الذى أعطاك من القدرة على الفعل ، ومن القدرة على الترك .

إذن . . فيجب أن تستقبل ذلك الوجود بمعرفة مهمتك . ويجب أن تحدد مهمتك بأنها لا تتعلق بخالقك أبدًا ، وإنما تتعلق بك أنت نفسك ، فإن أصلحت فإنما تُصلح نفسك ولنفسك ، وإن أفسدت فإنما تفسد نفسك وعلى نفسك .

وحق الله سبحانه وتعالى عليك وأنت خلق من خلقه أن تأتمر بأمره ، لا لشىء يتعلق بالنفع له ، ولا بالضرر عليه ، ولكن بالنفع عليك أنت وبالضرر عليك أنت .

ومن العجيب فى أمر الإنسان أن الله جعله الغاية فى هذا الكون كما يحددها منهج الله السماوى أنه خلقنا فى الأرض لنعمرها : ﴿ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ [هود : ٦١] ومعنى : ﴿ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ ﴾ أنه طلب منكم أن تعمروها ،

وأن تعمروها بأن تأخذوا ما سخره الله لكم من أجناس الوجود وتعملوا فكركم ، وبعد فكركم تعملوا طاقاتكم على مقتضى ما خطط فكركم ، وحينئذ تعمرون الوجود .

ولماذا نعمر الوجود ؟

لأن الحق سبحانه وتعالى كان من الممكن أن يعمره لكم ، وأن يجعلكم كأى شيء فى الوجود يرزق بلا عمل منه ، ويرزق بلا ارتقاءات .

فهل رأيتم أمة الحيوان مثلاً تحاول أن ترتقى بمستواها ، تحاول أن ترتقى بجنسها ، تحاول أن تجعل لها طموحات ؟ لا ، لا شيء من ذلك أبدًا . بل هى ستظل كذلك من يوم أن خلقها الله إلى أن يفنى الخلق . مهمتها بدأت ، وستظل معها ، وستنتهى وهي عليها .

ولكن الإنسان تميز بهذه الطموحات . . الطموحات التى يقول الله تعالى فيها : ﴿ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ طلب منكم أن تعمروها .

وما دام طلب منكم أن تعمروها ، إذن فيجب أن تستقبلوا نعم الله بفكركم ، وتعملوا فيها طاقاتكم لتحصلوا على الارتقاءات الطموحية التى تؤهلها لكم سيادتكم على سائر هذه الأجناس .

ومن عظمة الحق سبحانه وتعالى أن يَخْلُق من يَخْلُق .

لأن الحق سبحانه وتعالى حين يريد من الإنسان أن يعمر الأرض ، وأن يبتكر ، وأن يأخذ من ظواهر الوجود ما يجعل منه قضية كونية أساسية ينطلق بمقتضاها إلى آفاق جديدة لم تكن موجودة .

الحيوان أو النبات منفعل لك ، ولكن الله سبحانه وتعالى يريد أن تنفعل أنت لنفسك ، وانفعالك لنفسك أن تزيد من طموحات حياتك .

وحين تزيد من طموحات حياتك يتجلى فيك خلق الحق سبحانه وتعالى بأنه عدى من قدرته إليك فقدرت ، وعدى من علمه إليك فعلمت ، وعدى من إبداعه عليك فأبدعت .

وهكذا تكون الصنعة التى خلقها الحق سبحانه وتعالى ، قادرة من قدرته ، عالمة من علمه ، حكيمة من حكمته .

إن الحق سبحانه وتعالى حينما خلق الإنسان وكرمه ، وجعل كل الكون فى خدمته ، جعل للإنسان من آثار قدرته ، ومن آثار علمه ، ومن آثار حكمته ، ومن آثار إبداعه ، أن يقدر فيوجد أشياء ، وأن تكون له حكمة فيبنى أشياء على حكمة .

لماذا ؟ لأن ذلك وإن كان للإنسان شىء من الفخر فيه ، فيجب أن ينسب كل ذلك إلى من خلقه قادرا على ذلك .

حين يخلق الحق سبحانه وتعالى - قلنا : إن الإنسان قد يُعدّى أثر قدرته إلى سواه - بأنك تستطيع أن تحمل عن أخيك شيئا لم يقدر على حمله ، فتكون قد عَدّيت أثر قدرتك إليه . هو ضعيف لا يقدر ، وأنت تقدر ، فحملت عنه ، ولكن ظل هو ضعيفًا ، ولكن الحق سبحانه وتعالى يُعطى غيره لا أثر قدرته فقط ، ولكن يعطيه تعدّى قدرته إليه فيفعل ، وتلك هى عظمة التكوين .

فالإنسان حين يصنع صنعة ، لا يستطيع أن يطلب من الصنعة أن تصنع شيئًا ، ولكن عظمة الحق سبحانه وتعالى : أنه صنعك وأقدرك على أن تصنع شيئًا . وبذلك يتميز الإنسان عن الأجناس الأخرى : الحيوانات تصنع لك ، ولكنها لا تستطيع أن تصنع لنفسها .

ولكنك حين يصنع لك من الأجناس التى دونك تستطيع أنت أن تصنع لنفسك أشياء.. فكأن الحق أعطاك من صفات قدرته ما يُعدى لك شيئًا من آثار ﴿ كُن ﴾ ، فحين تتعرض لشىء تفعله ، وحين تتعرض لشىء تريد أن تحكمه تحكمه ، وبذلك يكون الحق سبحانه وتعالى قد صنع منك أيها الإنسان صنعة صانعة .

وهذا هو الفارق بينك وبين كل الأجناس ، تظل الأجناس صنعة ، ولكنها لا تكون صانعة أبدًا .

ولكنك أنت أيها الإنسان تكون صنعة وتكون صانعًا ، وبصنعتك أنت أيها الإنسان تُرفه أنت حياتك ، وتسعدها ، وتسخر لنفسك كل ما فى الوجود .

وبذلك تنتهى طموحاتك وأنت الغاية وأنت الوسيلة . فحين يجمد الإنسان عند مظهر من مظاهر الحياة البدائية يكون هو الملوم . لماذا ؟ لأنك أنت الغاية وأنت الوسيلة .

والحق سبحانه وتعالى يريد منا أن نستعرض كل الوجود بجميع ظواهره ، لنستفيد مما خلق الله بما صنع من هذه الظواهر ، بصدد أن نستنبط منها أشياء تفيدنا ، وترفه حياتنا ، وترقينا ، وتسعدنا .

فإن جمدنا عند شىء من الأشياء ، فالذنب ليس ذنب المكوُن ، وليس ذنب الكون ؛ لأن المكون قد أعطانا كل الأسباب ، مادة وفكرا وطاقة . فإن قصرت فأنت المقصر .

إذن . . فأنت الغاية فى عمارة الوجود وأنت الوسيلة فى هذه العمارة . فإن عشت عيشة متخلف فلا تلومن إلا نفسك .

والحق سبحانه وتعالى أعطى كل أسبابه فى الوجود لكل خلقه .

فمن شاء أن يستفيد من هذا الخلق تكوينًا ، وأن يُثريه منافعًا ، وأن يقتفى به طموحًا فليفعل ، ومن شاء أن يظل متخلفا جامدًا ، فليفعل ، وقد قصَّر هو ؛ لأنه يجب أن يُفهم أنك أنت الغاية فى هذا الكون وأنت أيضا الوسيلة .

وما دامت الوسيلة هى الغاية ، فالعذر يجب أن ينصب على من قصر ، لا على من خلق ، ولا على من كَوّن .

الوجود بكل ألوانه يُوحى بأن الإنسان يجب أن يتنبه إلى شىء . . هذا الشىء هو أن نواميس الوجود فى الكون نواميس عُليا مضبوطة ، هذا الانضباط فى التكوين فى كل ما لا دخل للإنسان فيه .

وما دام الانضباط فى التكوين فى كل ما لا دخل للإنسان فيه .

إذن فالفساد فى الكون فساد اختيارى ، لا فساد قسرى ، لا فساد قهرى ، وإنما كل أمر لك فيه اختيار هو الذى ينشأ منه الفساد .

وإلا فقل لى : لماذا لم يختل دوران الأرض ؟ لأنه ليس فى مقدور الإنسان أن يتدخل فيها .

ولماذا لم تختل مظاهر الشمس مع أبراجها ومع كواكبها ؟ لأنه لا دخل لك فيها .

ولماذا لم يختل الهواء ؟ لأنه لا دخل لك فيه .

إذن . . فكل النواميس الكونية التى توجد فى هذه الحياة وليس لك دخل فيها ، وليس لاختيارك عمل معها ، فى غاية الدقة وفى غاية الانضباط .

إذن . . فيجب أن تفهم جيدًا أن مناط الفساد إنما هو منك أنت أيها الإنسان .

ومنك أيها الإنسان متى ؟ لأنك حين تأخذ هذه المسخرات لك بدون منهج الذى سخرها ؛ لابد أن يتأتى فى اختيارك العطب ؛ لأنه غير مضبوط بمنهج أعلى منك وأعلى من هواك ، ومن هنا ينشأ الفساد .

إذن . . فعلى الناس أن ينظروا فى أمورهم الحياتية ، من أى جانب فسدت ؟

إن كانت الحياة فسدت من جهة الجماد فليصلحها ، من جهة النبات فليصلحها ، من جهة الحيوان فليصلحها ، من جهة النواميس العليا فليصلحها .

لا فساد من هذه الجهات أبدًا ؛ وإنما كل الفساد من ذلك الإنسان .

ومن العجيب أنه من الإنسان السَّيد ، ومن الإنسان المخدوم ، ومن الإنسان الذى سُخرت له كل هذه الأجناس لتخدمه بدون قدرة منه عليها .

ولما كان اختياره مؤديا إلى العطب كما نرى نقول له : لو نظرت إلى الناس وجدت أن كل نفس بشرية لها ملكات ، هذه الملكات ملكات مرئية له ، وملكات غير مرئية ، أو غير معلومة .

وحين يأتى الناس ، المفكرون أو الذين يريدون أن يخوضوا الحياة يُقننون بملكات فى النفس معلومة لهم ، ولا أقول معلومة بمعنى العلم الشمولى لكل ملكة ، لا . الملكات فى ذاتها بعضها مجهول وبعضها معلوم . المعلوم معلوم الجوانب ومجهول الجوانب .

فحين يقننوا إنما يقننونها بما علموا علما قاصرًا وقد يقننون بملكات لا يعرفون تكوينها .

إذن . . من هنا ينشأ الفساد ، ولكن الفساد حين ينشأ ما الذى يجعل الناس يقبلون الفساد فى أنفسهم ؟ يقبلون الفساد فى أنفسهم ؛ لأنه يعطيهم شيئًا من هوى سطحى ، ومتعة موقوتة .

والهوى السطحى والمتعة الموقوتة هى آفة المقاييس عند البشر ، والإنسان منا يرى عملاً يلتذ منه مرة ، وبعد ذلك يمقته مرة ، يمقته إن جاء ضرره عليه مرة ، ولكنه يمقته كمنفعل به له وإن أحبه ففاعل له .

فالذي يسرق يحب السرقة لأنه فاعلها ، ولكنه إن سُرِق مرة يكره السرقة لأنه منفعل لها .

حينئذ يوجد فعل منك وفعل يقع عليك . . فأنت لا تشعر بالآثار الضارة فى الفعل إلا إذا تعدى إليك أنت .

إنما ما دام صادرا منك فأنت تقنن به هواك . . وما دُمت تقنن به هواك فسيعطيك المتعة الموقوتة . ولكنك إذا قنن إنسان آخر هواه بك ، ابتدأ مبدأ الاختيار ينشأ منك ، وما دام نزع الاختيار ينشأ منك فى عمل من الأعمال الواقعة عليك ، فيجب أن تقدر نزع الأعمال التى تقع منك على سواك .

إذن . . ما دام هناك أنا ، وهناك سواى فلابد من أن يكون هناك مقنن ، لا أنا ، ولا سواى ، ولا يكون ذلك إلا تقنين من خلقنى وخلق سواى .

الإنسان
البداية.. والنهاية

وبعد . . فالإنسان بحكم وجوده فى الوجود ، يجد نفسه مسبوقًا بموجود ، ويجد موجودًا آخر يلحق به .

السابق له فى الوجود كانت له بداية وجود مثل الإنسان ، وما دام الإنسان يخطو خطوات إلى غاية ، فيجب أن يسير مع هذه الخطوات ليعرف متى تنتهى هذه الغاية ، فإذا ما وجد من سبقه فى الوجود قد انتهى إلى غاية ، وجاء بعده من سبقه أيضًا ، وهكذا بحيث لا يكاد يظفر الإنسان بأكثر من جَدِّه أو جَدِّ جَدِّه إن تسامت المسائل ، والذين سبقوا قبل ذلك ذهبوا ، ذهبوا إلى أين ؟

كان يجب أن يفهم : لماذا ذهبوا ؟ وإلى أين ذهبوا ؟ وإلا فذلك أمر غير منطقى ، أن يكون الإنسان السيد عمره موقوت بهذه الأرض ، التى هو سيد على كل الأجناس فيها .

أيُعقل أن يوجد إنسان وهو مكرم ، كل شىء فى الوجود فى خدمته وبعد ذلك توجد شمس أطول منه عمرا ، ويوجد قمر أطول منه عمرا ، وتوجد سماء ، وتوجد أرض ، وتوجد جبال . . كل ذلك أطول منى عمرا ، فيجب أن يتنبه الإنسان إلى أنه وإن انتهى إلى غاية فيجب أن يعرف أن ذلك الانتهاء يجب أن يكون بداية .

حين يفكر الإنسان ذلك التفكير ، لا يبيع نفسه رخيصة وإلا فسيقضى ثانية إلى عذاب قد يكون مقيما خالدا لا خروج منه . فكان من الواجب على الإنسان أن يبحث - مادام يخطو إلى غاية - إلى غاية تنتهى تلك الخطى .

وما دام سيبحث إلى أى غاية تنتهى تلك الخطى ، لم يجئ لنا بمدة الخطى ليقول لنا : إن خُطايا انتهت إلى كذا .

نقول له : ولماذا تبحث فى الخطى النهائية ؟ لماذا لم تبحث فى البدء ؟ أعرفت كيف بدأت ؟ أكان لك اختيار فى أن تبدأ ؟ أكانت لك قدرة على أن تبدأ كما تحب ؟ أكنت تعرف ما تحبه لتكون عليه شكلاً وصورة وعقلاً وتدبيرا ورزقًا وبيئة ومكانا وأبوين ؟ كل ذلك لا دخل لك فيه . . فلماذا تريد أن تعرف الدخل فى النهاية ، وأنت لا تعرف الدخل فى البداية ؟

إذن . . فوجب أن تعرف بدايتك : ممن أوجدك ، ونهايتك : من قدرها وبذلك ينحل لك لغز هذه الحياة .

من أين جئت ، وكيف جئت ، وإلى أين ؟ هذا اللغز الذى حير الفلاسفة ، كان يجب أن تُرهف سمعك لمن يحله لك ، وأن تستشرف إلى من ينقذك من هذا اللغز الذى يتعب حياتك .

إذن . . فكان من الواجب حين تسمع أن نداء صدر من واحد يدعى أنه جاء لك من عند الإله ، كان يجب أن ترهف سمعك إليه ليحل لك لغز هذه الحياة ليحلها لك . . لغز بداية ، ولغز غاية .

فإن ظللت على ما أنت عليه ، دون أن تخرج من القوة العليا : كيف بدأت وإلى أين تنتهى ؟ فستظل فى متاهة لا حصر لها ، ولن يستقر لك أمر .

الإنسان وهو صغير : ضعيف ، يجد حيلته فى سواه . ومادام يجد حيلته فى سواه ، فهو يفزع إلى صاحب الحيلة ، فإن عطش ، إن جاع ، إن أفزعه شىء ، فزع إلى من ؟ إلى الحيلة الملتصقة به .

ومن العجيب أن الحيلة الملتصقة به التى تعينه على أموره هذه ، حيلة رُكّب فى فطرتها أن تستجيب لك ، فلم يكن منها تطوع ، لم يجعلها الله تطوعا . . لماذا ؟ لأنه إن كان تطوعا ، فسيفعله البعض ولا

يفعله البعض ، فأراد الله أن يجعلها قسرا فى الحيلة التى أنت محتاج إليها ، ففي الأم ، فى الأب ، فى القريب ، فى الأخ ، فى الأخت . . كل هذه الوسائل القريبة منك ركب فيها من الحنان ومن الحب ومن العطف عليك ما يجعل حيلتك فى الحياة هى مسيرة ، فأنت تفزع إليها ، وقد تأتيك قبل أن تفزع إليها .

لا يمكن أبدا أن توجد هذه المسألة اعتباطا ، وإلا فكيف يوجد الإنسان فى ضعف ، وبعد ذلك تأتى أسباب قوة قد تعينه وقد لا تعينه .

يشاء الحق سبحانه وتعالى أن يضع فى الحيلة التى للإنسان الضعيف قبل أن يشتد أزره طاقة تندفع إلى الحنان ، طاقة قسرية ، هذه الطاقة القسرية تقوى وتضعف حسب حاجتك إليها ، فإن كنت صغيرا جدا قويت الطاقة وإن كبرت قلت الطاقة ، وإن تساوى أناس ، أو تساوت فرص بالنسبة إلى الطاقة التى تسميها الحيلة - حيلتك فى الحياة - تكون الحيلة بالنسبة إلى الأضعف منها .

يشاء الحق سبحانه وتعالى أن يربيك تلك التربية وبعد ذلك يشتد عودك ، فحين يشتد عودك وتبلغ رشدك يجعلك الله إنسانا مستقلا ، ومعنى إنسانًا مستقلا . . أصبحت لك ذاتية غير محتاجة إلى الغير .

وحين توجد لك الذاتية غير المحتاجة إلى الغير يوجد لنفسك هوى ، حين يوجد لنفسك هوى ، إن عشت عيشة المادة فقط ، فإن هواك لا يخدم إلا ذاتك فى وقتها الحالى ، وإن أخذت الحياة بمقدماتها من سواك ، علمت أن الذى كان لك حيلة - أى : قوة - تعينك على ضعفك ، أصبح ضعيفا يتطلب حيلة تعينه على ضعفه .

من هذه الناحية تعتقد أن ذاتيتك لن تدوم لك ، فلم تبدأ بذاتية ، ولم تنته بذاتية وإنما بدأت بقوة تسند ضعفك ، وانتهيت بقوة تسند ضعفك .

ومادامت هذه الأمور كلها لا ذاتية لك ، فيجب أن تربط نفسك بأمر ذاتى يكون لك بدءًا ، ويكون لك مصاحبة ، ويكون لك انتهاء .

حين تجد قوتك التى كنت تعتمد عليها وقت ضعفك ، وقد انتهت من أمامك وأصبحت أنت قوة يحتمى بها ضعف من جاء بعدك .

إذن . . فالمسألة دواليك . ومعنى دواليك : أنك تؤدى مهمة أُديت لك ، وتؤديها أنت إلى من بعدك .

كل تلك العملية كان يجب أن تلتفت من ورائها إلى قيومية نظمت هذه الأشياء تنظيما غريزيا فى النفس البشرية بدون تقنين ، وبدون قوة مرهبة ، وبدون قانون جزاءات ، وبدون شىء .

هذه القوة هى القوة غير المرئية التى نسميها نحن المسلمون : الحق الخالق الذى : ﴿ قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ [الأعلى : ٣] .

الحق سبحانه وتعالى حينما يرسل رسله ، يريد أن يُخرج الناس من أهوائهم .

ومعنى إخراجهم من أهوائهم : أن يجعل قيما ثابتة تتحكم فى حركة الوجود .

والقيم الثابتة حين تتحكم فى حركة الوجود لابد أن يضعها ثابت ؛ لأنها إن وضعت من متغير فسيضع تغيره عليها فتكون متغيرة .

الحق سبحانه وتعالى لا مصلحة تعود عليه من خلقه ، إلا أن ينتفع خلقه بالحياة الكريمة ، وتسلمهم إلى حياة أفضل .

الحق سبحانه وتعالى حينما يشرع لنا التشريعات إنما يشرعها على أنك فاعل لها مرة ، وعلى أنك منفعل لها مرة أخرى ، والذين يفسدون فى الأرض لا يقدرون إلا جهة واحدة فى الانفعال الذى يُفسد فى الأرض لا يقدر إلا أنه قوى يستطيع أن يظلم ، فإن أخذ بجانبها أنه ضعيف يمكن أن

يُظلم ، لاعتدل ميزان حياته ، وحين يعتدل ميزان الحياة يكون المطلوب منك مقابلاً بالمأخوذ ، فأنت آخذ مرة ، ومعطٍ مرة ، فخذ الأخذ بقانون العطاء ولا تأخذ شيئا وحدك ؛ لأنك إن أخذت شيئًا وحدك أتعبت من سواك ، وإن أتعبت من سواك ، فستظل متعبا له ما بقيت لك قوة ، وإن زالت قواك ، تعرضت لمتاعبك من الأقوياء .

الإيمان بالله..
ضرورة من ضروريات الحياة

انتهينا فى الفصل السابق إلى أن الحق سبحانه وتعالى غنى عن كل شىء من خلقه ؛ لأنه بصفات الكمال خلق ، وبصفات الكمال فيه كان قيوما على خلقه ، يدأهم وإليه يعودون .

إذن.. فالخير كل الخير حين نشرع ما شرع الله لخلقه أن صنعته تفعل ، وأن صنعته ترتقى ، وأن صنعته تأمل ، وأن صنعته تكون على خير ما يحب الصانع أن تكون صنعته عليه .

وقلنا : إنه كان من الواجب على الإنسان أن يرهف أذنه ليسمع من رسوله مهمته فى هذه الحياة.. لماذا ؟ لأنه إذا ما ظل الإنسان يأخذ تقنينه من غيره نقول له : نريد منك : أتقنينات الغير للغير بقيت أم تغيرت ؟

كل استقراء التاريخ يقول إنها تغيرت ، وأن العالم من يوم أن خُلق لا تزال فيه طائفة شاردة عن منهج الله سبحانه وتعالى . لتظل متخبطة تخبطا يعطينا تاريخا أن العقل البشرى لا يمكن أن يتعب وحده ، ولا يمكن يُتعِب إذا صدر عن منهج واحد لا يتغير .

لقائل أن يقول : ولماذا لا يوجد الإنسان من أول الأمر مهديا وتستقيم أمور الحياة ؟ لا ، إن استقامة أمور الحياة تطوعا هكذا لا تجعل للحياة لذة.. هذه اللذة هى أن الإنسان يصبح معتمدا على قوة أقوى منه لا تتغير ؛ لأن النفس البشرية حين ترى الكون يتغير أمامها ، وحين تجد - كما قلنا - أُناسا شاردين عن مناهج السماء ، ويعيثون فى الأرض فسادا ، ثم بعد ذلك يرى مصارعهم أمام عينيه .

يستدل من ذلك على أن العالم لو ترك لهواه لشقى ، ولو ترك لهواه لفسد .

إذن . . فكان ولابد أن تبقى شرذمة قليلة فى الوجود لتبين أن منهج البشر للبشر ضعف .

وأيضًا : فالظالمون الذين يستشرون فسادا ، ويكونون إمبراطوريات واسعة ، وملكا ظاهرا ، حين يستتب لهم الأمر ويقوى ، ما الذى جعل الضعف يتسرب إليهم شيئًا فشيئًا ؟!

كان من الواجب أنه ما دام قوى وصار قمة فى القوة أن يظل كذلك ، لا ؛ إن الحق سبحانه وتعالى يُريد من انهيار أسباب الظالمين أن يبين أن الظالم لا يستطيع أن يحمى نفسه من الحق ، وأن الله سبحانه وتعالى يريد من الظالمين أن يتبوأوا مكانًا عاليا ، ثم ينزل بهم إلى الحضيض لأنهم لو ظلوا فى الحضيض لما تبدت قدرة الحق فى أن يخلق جبروت الخلق .

حين نرى تلك الظاهرة نقول : لا ، لابد أن يوجد من هو أقوى من ذلك .

الرسل هم الذين يحددون هذا ، حين يأتى الرسل يأتون فيؤمن بهم الضعاف ، ويؤمن بهم الأقلية . . لماذا ؟ لأن الضعاف والأقلية هم المهضومون ، هم المظلومون فى الأرض ؛ ليس لهم جاه ، وليس لهم سُلطة زمانية ، وليس لهم جبروت يحاولون أن يدافعوا ، وحين يأتى منهج السماء ليصفى ظلم الأرض لابد أن توجد قمم إفسادية .

هذه القمم الإفسادية تندك على أيدى القلة المستضعفة ، حينئذ يلتفت الناس إلى قوة أخرى ، هذه القوة الأخرى هى القوة الغيبية : ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [البقرة : ٢٤٩] .

لماذا ؟ لأنه لو كانت المسائل بقانون النسبية الحدسية أو بالنسبة البشرية ، لقلنا : كيف يقدر هؤلاء الضعاف على هذه القوة الهائلة .

إذن . . لابد أن تندك : لا توجد قوة إلا وتوجد قوة أعلى منها .

وتلك هى القوة الملحوظة ، وذلك هو الضعف الملحوظ ، فمن أين جاء للضعف الملحوظ قوة تفتك بهذه القوة الملحوظة ؟ فيتنبه الإنسان إلى أن هناك قوة خفية فوق هذه القوة الظاهرة .

الرسل حينما يجيئون إنما يجيئون ليأخذوا بيد الناس إلى منهج الله .

وقلنا : يجب أن نفهم أنهم جاءوا مُذكرين ، أنهم جاءوا منذرين ، أنهم جاءوا مبشرين ، لا يقال : جاء منذرا ولا جاء مبشرا ؛ إلا إن كانت القضية معلومة .

مُبَشِّر : يعنى يبشر من عمل صالحا بِجَنَّةٍ أو بفوائد .

منذر : ينذر من عمل سيئًا بعقوبة .

إذن . . لابد أن يوجد قبل ذلك منهج وجاء مذكرون .

إذن . . فلابد أن يوجد أيضًا منهج ، ولكن الناس تغفل عنه .

الإنسان منا حينما يوجد فى ذلك الكون ، لا يلتفت إلى القوة الخفية الغيبية ، طالما وجدت له قوة ذاتية ، ولذلك يظل الإنسان وهو سليم ، معافى ، صحيحا ، ربما لا يقول : « يا رب » .

ولكن إذا ما جاءه عطب أو ألم أو شىء هز كيانه ، فإنه يقول : « يا رب » .

لماذا ؟ لأن الإنسان عادة يحب نفسه ، ومادام يحب نفسه ، فهو لا يحب أن يُسلمها . ومادام لا يحب أن يسلمها فإذا ما جاءت له فترة ضعف ، يقول : لا ، هناك قوة تستطيع أن تعطينى القوة ؛ ولذلك : ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾ [الروم : ٣٣] ، لماذا ؟ لأنه لا يريد أن يسلم نفسه .

ولكن إذا أنعم الله عليه فماذا يحدث منه ؟ ﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ﴾ [فصلت : ٥١] يعنى : رجع إلى ذاتيته .

إذن . . فكأن المبدأ الإنساني الموجود الذى قننه الله : ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝ ﴾ [العلق] .

إذن . . فاستغناءات النفس البشرية هى التى لا تلفتها إلى قوة أخرى .

وضربنا لذلك مثلاً : قلنا إن الطفل الصغير يظل يلعب فى الشارع ، ومادام قويا على أترابه لا يلتفت إلى أبيه ولا إلى أمه ولا إلى أخيه ، فإن اعتدى عليه ولد بضربة لم يستطع أن يدفعها عن نفسه ، لم يجد له مفزعا إلا أن يذهب إلى أبيه ، أو يذهب إلى أمه ، أو يذهب إلى أخيه .

فتلك الصورة الضيقة فى الحياة العادية ترتفع إلى مستوى أن الإنسان إذا ما أصابه شىء لا يقدر عليه ، فلابد أن يلجأ إلى قوة أخرى . هذه القوة الأخرى من مصلحته أن تكون موجودة .

إذن . . فمن مصلحة الناس ومن مصلحة البشرية أن يوجد لهم إله يفزعون إليه عند الشدائد ، وإلا فالذي لا إله له يفزع إليه عند الشدائد ، بأي شىء يريح نفسه ؟ بأي شىء يُؤمِّل فى أن يخرج من ضائقته ؟ بأي شىء يؤمل فى أن الشر الذى أحاط به ينجلى عنه .

إذن . . فالذين لا يؤمنون بإله أشقياء ، والذين لهم إله يكفيهم أنهم ساعة يذكرون أن هناك إلهًا أن يقولوا : « يا رب » تُريحهم هذه الكلمة .

العالم حينما تقوى أسبابه وطغيانه يبتعد عن منهج السماء ولا يلفته إلى منهج السماء إلا أن تصيبه المحن ، أو تصيبه الشدائد ، حين تصيبه المحن وحين تصيبه الشدائد يلتفت إلى منقذ فلا يجد من مثله منقذًا ، وما دام لا يجد من مثله منقذا ، فمن مصلحته أن يكون منقذه من غير مثله .

من مصلحته أن يكون منقذه أقدر من مثله ، من مصلحته أن يكون منقذه ممن لا يتغير ، من مصلحته أن يكون منقذه لا هوىٰ له .

إذن . . فالإنسان بطبيعة تكوينه لابد أن يفزع إلى قوة . . هذه القوة يعتقد الإنسان فيها أنها القوة التى لا يطرأ عليها تغيير .

فالعالم حين لا يوجد عنده هذه القوة ، يظل عالما حائرا ، عالما

مضطربا ، والأشياء التى ندركها فى الكون من هذه الهزات هو أن كل قوى لا يلتفت إلى أن هناك من هو أقوى منه .

ولكن نقول له : أكُلُّ الأقوياء ظلوا أقوياء ؟ بالطبع . . لا .

إذن . . من مصلحة العالم ، ومن مصلحة المجتمعات كلها أن توجد قوة ليست منها . . لماذا ؟ لأنها لو صارت منها ، لأصبحت لها قوة زمنية تفتك وتبطش .

والحق سبحانه وتعالى يريد منا عدالة ، هذه العدالة لا تتوفر فى ذاتياتنا ، وإنما لا تتوفر إلا فى منهجه هو . . لماذا ؟ لأنه لا ينتفع بطاعتنا ، ولا يُضَرُّ بمعصيتنا .

الحق سبحانه وتعالى حينما أرسل رسله إلى الكون كان من المعقول أن يحلوا لنا لغز هذه الحياة ، فإذا ما جاءوا ليحلوا لنا لغز هذه الحياة كان من الواجب أن نستمع إليهم .

فالذين لم يستمعوا إلى الرسل ليحلوا لهم لغز الحياة لابد أن يوجد عندهم صارف عن هذا .

هذا الصارف : أنهم ليسوا فى استواء خُلقى اجتماعى ؛ لأن المنهج الذى يجيء به الرسل منهج يضرهم ولا يمكن أن يكون منهج الرسل ضارًا إلا بالمفسدين .

إذن . . فكان ولابد أن توجد طوائف ، هذه الطوائف تعيش على الفساد ، وتعيش على الطغيان ، وهؤلاء هم الذين يصادرون كل دعوة خير ، حين يصادرون كل دعوة خير ، لابد أن يؤيد الله رسله من السماء بمعجزة .

هذه المعجزة تلفت إلى صدق الرسول صلى الله عليه وسلم فى أدائه عن الله .

وقلنا : إن الحق سبحانه وتعالى والى - رحمة منه - مواكب الرسل فى الأرض ، حتى إذا انطمس مَعْلَمٌ من معالم الحق ، جاء رسول فجلاه للناس .

الحضارة الغربية
وليدة البذور الإسلامية

انتهينا فى الفصل السابق إلى أن الإيمان بالله ضرورة من ضروريات الحياة .

ضرورة نفسية ، يستريح فيها المؤمن بالله إلى أن له إلهًا قويا قادرا قاهرا ، يفزع إليه فى كل ملماته وظروفه .

وضرورة اجتماعية ؛ لأنه يحتمل عن الناس جميعًا التقنين الذى ينظم حركة حياتهم بعيدة عن أهواء البشر ، الذين يحبون أن يسيطروا بالباطل .

وضرورة عقلية ؛ لأن الإنسان لا يمكن أن يستريح إلا إذا عرف كيف بدأ ؟ وماذا يراد منه ؟ وإلى ماذا ينتهى ؟

وكل الذين شغلوا عقولهم وشغلوا نفوسهم بهذه المسألة أتعبوا نفوسهم وأتعبوا الناس ولم يصلوا إلى نتيجة مقنعة مجدية .

والإيمان بالله معناه : أن نتيقن بوجود قوة قاهرة قادرة خلقت الكون ، وإليها يصير كل شيء .

والإيمان بالله أمر يجب أن نأخذ دليله من الحواس . والحواس هى وسائل الإدراك التى تنقل إلى الإنسان إحساسه بالوجود حوله ليستطيع أن يستنبط منها ما وراء هذا الوجود .

وقلنا : إن التعقل يجب أن يسبق التصور ؛ لأن التعقل : أن نتعقل قوة قاهرة قادرة فإن تجاوزنا منطقة التعقل إلى منطقة التصور تعبنا وأتعبنا .

والإيمان بالله يجب أن يكون إيمانًا بغيب ؛ لأن المسألة لو وصلت إلى

مسألة الحس وأصبحت مقدورة للحواس لكان المقدور ممكنا ، وما دام المقدور ممكنا ، فقد صار الواجب ممكنا ، ولا ينتقل الواجب إلى ممكن أبدا .

والإيمان بالله ذلك الرصيد يجب أن نؤمن به ، لكن تصور ما عليه الله يجب أن يُوكل إلى الله فلا نستطيع أبدًا أن نتعقل اسمه ، بل هو الذى يقول اسمى كذا . ولا يصح أبدا أن نتعقل له صفات إلا أن يقول صفاتى كذا وكذا وكذا .

إذن . . فالعقل مهمته قاصرة على أن تقول : إن وراء هذا الكون قوة خلقت ذلك الكون ، ولذلك يجب أن نقول لعلماء المادة الذين بحثوا فيما وراء الطبيعة .

نقول لهم : ما الذى دلكم على أن وراء الطبيعة شيئًا يمكن أن يُبحث عنه ؟

ما دام هو وراء الطبيعة ، إذن فليس أمرًا ماديا ، بل هو وراء المادة ، وما دام وراء المادة فمن الذى قال لكم : وراء المادة شىء يجب أن تبحثوا عنه ؟

ذلك هو منطق الفطرة ، لماذا ؟ لأن الفطرة تقتضى أننا لا نجد شيئًا من أشيائنا التى نحدثها إلا وله من خلقه ، فلا يمكن أن نتصور وجودا بهذه الدقة وبهذا الإحكام وبهذا الهدف وبهذه الغايات إلا أن يكون له خالق .

إذن . . فالعقل الفطرى آمن بأن وراء المادة شىء يجب أن يبحث عنه .

ولكن العلماء أو الفلاسفة الذين انطلقوا من رقة التدين أرادوا أن يخوضوا فى هذه المسألة بعقولهم أيضًا ، وأن يستنبطوا أشياء العقل الأول والعقل الثانى ، والعقل المفيض ، والعقل الكذا ، كل ذلك كلام لا أصل له ، ولا واقع له ؛ لأنه وراء المادة .

فنقول لهم : يكفى أن تتعقلوا هذه القوة ، وأن تتركوا هذه القوة لتعلن

عن نفسها بواسطة الرسل الذين يرسلهم الله بالمعجزات التى تدل على صدق بلاغهم عن الله .

التدين فى عمومه والإسلام فى خصوصه يتعرض إلى أشياء يجب أن ننتهز فرصة حياتنا فى رمضان لنجليها تجلية تضع أمام ناشئتنا النقط على الحروف ، أما كون التدين فى محنة ؛ فلأن هناك تيارات موجودة فى العصر الحاضر ، وجدت لها قوة ، ووجدت قوة من مصلحتها أن تلغى فكرة التدين من الناس لماذا ؟ لأنهم يريدون السيطرة والقوة غير المقيدة بأي شيء ، هؤلاء من مصلحتهم أن ينفلتوا عن السماء وعن منهج السماء ، هؤلاء نخاطبهم بماذا .

يقولون مثلاً : الدين خُرافة ، الله لا وجود له .

نقول لهم : ما لكم ومسألة أن الله لا وجود له ؟

يجب أن تقتصروا فى بحثكم على موضوعية البحث ، انظروا إلى ما جاء به الدين وبعد ذلك قارنوه بما جئتم به أنتم وما عليكم فى أن نقول إن ذلك من عند إله نعتقد وجوده .

إذن . . فابحثوا موضوعا أمام موضوع ولا تتهربوا من مناقشة موضوع الدين بموضوعات بشريتكم لتقولوا : إن هذا الدين خرافى . . ولذلك نرفضه . . لا .

هاتوا ما عندكم من نُظم ، وهاتوا ما عندكم من قوانين وبعد ذلك قارنوها بما نقول نحن المسلمون إن ذلك من عند الله ، وما عليكم أن يكون الله كما تقولون لا وجود له ؟

إذن . . فقارنوا موضوعًا بموضوع ، وهاتوا شيئًا من عندكم وشيئا من عندنا فى موضوع ومجال خاص لتناقشوه مناقشة موضوعية ، فإذا ما أردتم أن تفعلوا ذلك فيجب أن تتركوا كلمة الدين خرافة .

الدين خرافة هو موضوع حقيقة . . اتركوا الخرافة وهاتوا الحقيقة .

وانظروا : التقنينات التى تجيئون بها أو تدعون أنكم تصلحون بها الكون : أسبقتم أنتم إليها . . أم أنتم مسبوقون إلى خير منها ؟

ستجدون بالاستقراء أنكم مسبوقون إلى خير منها ، ومن أُمم لا حظ لها من ثقافة ، ولا حظ لها من علم ، ولا حظ لها من حضارة ، ولا تعرف تقنينا بل كانت أمة بدائية قبلية ، كل قبيلة لها حكم بذاتها ، ولها شيخ يحكمها ، ولا ارتباط لأحد بأحد أبدًا .

فلم تنشأ دولة ، ولم تنشأ أُمة ، ولم تنشأ شعبا ، كل قبيلة لها قانونها الخاص .

ولم تتمرس بحضارة ، ولم تتمرس بثقافة ، ومع ذلك جاءت بنظام محكم يشمل كل أقضية الحياة .

فهاتوا أنتم ما وصلتم إليه بحضاراتكم ، وقارنوا جزئية من هذه الجزئيات وبعد ذلك انظروا نظرة أخرى .

هذه النظرة : أنتم تقولون إن الدين تخلف . الدين ليس تخلفا لأن الدين - أو الإسلام بالخصوص الذى جاء لينسخ كل الرسالات السابقة - لم ينزل اليوم ، وإنما نزل من أربعة عشر قرنا وأكثر . وقاد حركة الحياة ، وأصبحت أمته هى الأمة الأولى فى العالم قرابة ألف سنة حكمت العالم حكما استنار بالعدل ، واستنار بالاستقامة ، واستنار بالطموح الحضارى ، واستنار بالكشف العلمى .

كل ذلك موجود ، وما حضارتكم التى تتشدقون بها الآن : إلا وليدة البذور التى وضعها ذلك الدين .

إذن . . فليس الدين دين تخلف ، وإن طرأ على أتباعه التخلف فمنهم هم ، لأنهم عزلوا حركتهم عن الدين .